

الصنف الخامس: الدعاة الأوصياء على غيرهم

وهناك صنف من الدعاة يَنْصِبُ نَفْسَهُ وصياً على الجميع دون أن يختاره أحدٌ لتلك المهمة، يتمثل عمله في أن يبين لكل فريق إذا فشل لما ذا فشل، وإذا نجح لماذا نجح؟ فهو في الأول شامت، وفي الثانية مُمْتِنٌ، فليس هو ممن يُنشِئُ عملاً يكون له فضلُ السبق إليه، كما لا يكون معنياً بإكمال ما بدأ به غيره، ولو فعلهما لكان محموداً في كلتا الحالتين، ولكنه بدلاً من ذلك بتعاطي ما لا يُحسنه، لأنه خيّل إليه أنه وحده دون الآخرين هو من يملك الحقيقة المطلقة في الأحداث الجارية، فإذا وجد في الساحة من يُصدِّقه من البسطاء على طرحه ذلك ازداد غروراً بنفسه، فينتقل من التعليق على الأحداث بعد وقوعها إلى التنبؤ بما قد يحدث في المستقبل من الفشل، أو النجاح، فلا تجد له وجوداً وقت العمل كما لا يغيب عن المجالس وقت الكلام، وبذلك يُظهر للناس أنه قد حذر من الفشل قبل حصوله، وأرشد إلى النجاح قبل تحقُّقه، فلا يزال يتمادى به الهوى، وتتقاذفه الأمواج في هذا الميدان حتى يأتي بعظائم الأمور مما لا يصدقه عقلٌ، ولا تُثبِّرُه تجربة، فيفتضح بها على رؤوس الأشهاد، لأنه لم يكن يملك خلفيات عن الأحداث السابقة ليستخلص منها الدروس والعبر حتى يقيس عليها نظائرها في المستقبل.

ولما كانت سنة الله في خلقه أن من تعجّل شيئاً قبل أوانه عوْمِلَ بنقيض قصده لا بد أن يأتي عليه ذلك اليوم الذي تحترق فيه جميع أوراقه كنتيجة حتمية لتحليلاته الارتجالية التي لا تستند إلى شيء، بل كان دافعه إليها ادعاء المعرفة بمجريات الأمور عن طريق تلك التخمينات التي لا تُكلفه بشيء من الجهد والعمل.

فلن يمر عليه كبير وقت حتى يظهر للملأ على حقيقته، فيسقط من أعين الناس سقوطاً مُدوياً يصعبُ القيام منه، فينصرف إلى العزلة عن الناس ليستسلم للشيوخوخة المبكرة، وكله أمل أن ينسى الناسُ عما أقدم عليه من الكلام فيما لا يُحسنه، وقد صدق من قال: (إن الجاهل يسعه السكوت) فإن تكلم فهو الذي دل الناس على ما عوراته، والسلامة لا يعدلها شيء.

إن ترك هذا الصنف من الدعاة يُجول، ويمرح في تقييم العمل الإسلامي إساءةً للعمل الإسلامي، وتشويهاً لسمعة العاملين له، بل هو جريمة في حدِّ ذاته، فلا بد من نشر

الوعي الكافي بين الناس لمعرفة من يحق له أن يتحدث عن العمل الإسلامي بالتقييم والتنظير، فمن غير المعقول أن يُسمح لكل متطفل ممن لا يصلح لإدارة شؤون نفسه أن يتصدر في هذا الميدان، فأياً تقصير في العمل الإسلامي يمكن تداركه إلا في قيادته. يمثل هؤلاء، فإن حدث هذا فإنه حتماً يؤدي إلى نتائج عكسية تُنفّر عن الإسلام وأهله، فالفاشل يريد عادة أن يفشل الجميع حتى يعم الفشل، فلا يُعيّره به أحد، شأنه في ذلك شأن صاحب عاهة إذا وُضع في الحجر الصحيّ حمايةً للمجتمع من مرضه المعدّي. يتمنى أن ينتشر المرض بين الناس حتى يخرج من الحبس الانفرادي.

إن العمل الإسلامي منظومة متكاملة إذا اختل بعضها تداعى سائرهما للتفكك والانهيار كالبيت إذا اختل أحد أركانه فإنه يكون عرضةً للسقوط، فالخطورة التي تكتنف العمل الإسلامي وقت ظهوره ونجاحه أشد منها وقت انحساره وغربته لأن أذعياءه يكثر وقت ظهوره، فيختلط الحابل بالنابل، فيخرج الأمر عن السيطرة، ومن ثم قد يتسلل إلى قيادته من ليس من أهله.

وإذا أردنا أن ندرك حجم الفرق بين الأقوال والأفعال في العمل الإسلامي فعلياً أن نقارن القرارات بالأعمال المنجزة في الميدان لنُدرك من خلالها ضالة العمل المنجز مقابل كثرة القرارات، فالأفعال ميزان الأقوال، فإذا تخلفت الأفعال عن الأقوال كان ذلك إيذاناً بوجود خلل يهدد المجتمع بالشلل التام إذا لم يتم تداركه، لهذا قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبِرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}.

إن العمل الإسلامي ابتلي في الآونة الأخيرة بزعامات لم يتم تأهيلها على الوجه المطلوب، فتركوا لمزاجهم يمارسون العمل الدعوي على طريقتهم إلى أن وصلوا إلى مواقع القيادة، فلما تمكنوا منها صعب على الجميع إصلاحهم بالتأهيل من جديد لأنهم يرون أنهم هم من يقومون بتأهيل الآخرين، فيتعثر بهم العمل الإسلامي لأنهم غير قادرين على قيادته، ولا يعترفون بالعجز حتى يفسحوا المجال لغيرهم ممن عندهم أهلية بذلك.

والذي زاد الطين بلةً أن الإسلاميين يختلفون عن الأحزاب الأخرى كونهم يصنعون قادتهم بطريقة مختلفة عن بقية القيادات، فما أن يصل أحدهم إلى أعلى هرم السلطة في التنظيم الإسلامي حتى يُسدلوا عليه هالة من التعظيم والقداسة، فتتحول قيادته من قيادة

كانت تخضع للأنظمة واللوائح إلى قيادة روحية ملهمة فوق المساءلة والمحاسبة، فيكون خطؤه صواباً، وصوابه اختراعاً، فلو حصل للعمل الإسلامي إخفاق، فالذنب على مَنْ دونه، وإن حصل له نجاح، فالفضل يعود إليه بعد الله، وبمرور الزمن يتحول العمل الإسلامي من كونه في البداية جماعياً إلى كونه عملاً فردياً في مضمونه ليس للآخرين فيه أيُّ دور يُذكر إلا ما يتفضل به ذلك القائد على بعض الأفراد، حاله كحال الأنظمة القائمة في بلداننا.

وكان بالإمكان الخروجُ من هذا الركود القاتل للعمل الإسلامي بسنِّ قوانين لتحديد فترة لكل قائد لا يتخطاها بحال من الأحوال مع تقييد صلاحياته، فلو قُدر في هذه الحالة أن أحداً غير مؤهل قد وصل إلى القيادة لأمكن التقليل من خطورته لأنه ينتهي دوره بانتهاء مدته المحددة، وبالتالي يستعيد العمل الإسلامي عافيته من جديد.

ثم إن تبديل القيادات في العمل الإسلامي مرآة تعكس صورة عمل القائد إنجازاً وإخفاقاً من خلال المقارنة بغيره ممن سبقوه أو لحقوه، ولكن بكل أسف إن الإسلاميين مع أنهم أكثر الداعيين إلى تبادل السلطة في الحكومات الاستبدادية لا تزال قيادتهم تشبثُ بالمنصب إلى أن تموت، فلو كانوا صادقين في دعواهم لطبقوا ذلك على أنفسهم في مناصبهم داخل الجماعة، وهذا ما أفقدهم المصادقية في مطالباتهم الأنظمة القائمة بتبادل السلطة.

بقلم الدكتور/ عمر إيمان أبوبكر